خاتمة البحث

وبعد فقد انتهيت من الدراسة الخاصة بمجتمع القاهرة في العصر الأيوبي (٧٦٥-٦٤٨هـ/١١٧١- ١٢٥٠م) واتضح لي من خلالها أن التاريخ السياسي والحضاري للقاهرة في هذه الفترة يمثل مرحلةهامة من مراحل تاريخ وحضارة مصر الاسلامية .

وتعتبر الفترة التي عاشتها القاهرة في ظل الحكم الأيوبي مرحلة نشاط شامل سرى في أوصال مجتمعها الذي انتابه الخمول في نهاية العصر الفاطمي نتيجة للفتن والاضطرابات التي شهدتها المدينة من جراء ضعف الخلفاء الفاطميين وتسلط الوزراء عليهم .

ولذلك فقد أضافت القاهرة في هذه الفترة الكثير إلى الحضارة الإسلامية في كافة مظاهرها ، كماكان لها دور رئيسي في أحداث العالم الإسلامي لا سيما مايتعلق بحركة الجهاد الإسلامي التي قادها الأيوبيون ضد الصليبيين في الشام ومصر وادت إلى كبح جماحهم وكسر شوكتهم.

وكان مجتمع القاهرة في عصر الأيوبيين كأي مجتمع في مدينة إسلامية أخرى، حيث وحد الإسلام بين أفراده مهما اختلفت أجناسهم وطوائفهم ، وعاش المسلمون مع أهل الذمة نصارى أو يهود في محبة ومودة .

وقد ضمت القاهرة في تلك الفترة عناصر بشرية عديدة في مقدمتها الأكراد والمماليك الذين شكلوا القوات الرئيسية للجيش الأيوبي الذي تحمل عبء الجهاد الإسلامي ، كما اعتمد عليهم الملوك الأيوبيون في صراعهم على السلطة بعد رحيل السلطان صلاح الدين وتفكك الوحدة الإسلامية .

وعلى أرض القاهرة الأيوبية تجاورت الطوائف الدينية في مجتمع بشري متماسك متعاون ، وشكل هذه الطوائف السنه وأهل الذمة من النصارى واليهود أما الشيعة فعلى الرغم من أنهم شكلوا العنصر الرئيسى في القاهرة زمن الفاطميين الا انهم تواروا واختفوا من القاهرة زمن الأيوبيين ولم يعد لهم أي دور يذكر في الحياة طوال تلك الفترة.

ومع أن القاهرة قد تحملت العبء الأكبر في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين إلا أن مجتمعها لم يهمل جانب المرح في حياته ، فكان لافراده احتفالاتهم وأعيادهم الدينية والقومية التي كان لها أثر طيب في نفوسهم.

وقد ارتقت النظم الادارية والقضائية والمالية والحربية في القاهرة زمن الأيوبيين وكانت متأثرة في الكثير منها بالنظم السلجوقية لاسيما مايتعلق برسوم وتقاليد السلاطين الأيوبيين الذين ساروا على نفس نهج اسلافهم السلاجقة في الحكم والادارة.

وكانت القاهرة في عصرها الأيوبي غاية في النظافة والجمال ، وساهم في ذلك القائمون على شئون المدينة من الولاة والمحتسبين وعمال الشرطة ، وساعدهم على هذا مجتمع القاهرة الذي حرص دائما على نظافتها وتجميلها،

وقد شهد بذلك الرحالة الذين زاروها في العصر الأيوبي وغيره من العصور الإسلامية أمثال الرحالة ناصر خسرو وابن جبير وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم ممن اسهبوا في ذكر محاسن القاهرة وفضائلها.

وبالبحث في مظاهر الحياة الاجتماعية في القاهرة زمن الأيوبيين نجد أن أبرز علامتها هو دور المرأة ومكانتها في تلك الفترة فعلاوة على دورها الرئيسى في الأسرة ، فقد ساهمت في بعض مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفنية ، كما كان لنساء البيت الأيوبي، أثر واضح في تطور الأحداث السياسية لاسيما في عهد السلطان الكامل محمد وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ وقد اشرت لذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى .

وفي مجال الثقافة كانت القاهرة منذ تأسيسها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ، على يد جوهر الصقلي وطوال العصر الفاطمي تنافس بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، وعلى الرغم من أنها لم تعد عاصمة لخلافة مستقلةبعد قيام الدولة الأيوبية الا أنها استمرت في ازدهارها الثقافي والحضاري.

وفى القاهرة الايوبية انشئت عشرات المدارس التي تحملت عبء المحافظة على التراث العربي الإسلامي ، وساهمت " بدور رئيسي في ازدهار الثقافة بكافة معارفها، وفي مقدمتها العلوم الدينية التي كان لها مكان الصدارة في العصر الأيوبي لارتباطها الوثيق بالدين من ناحية وبالدولة وحياة المجتمع من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى ازدهار العلوم الأخرى من الدراسات الأدبية والعلمية.

وقد اعتمدت الحركة الفكرية في القاهرة على العديد من أبرز علماء العالم الاسلامي حينذاك. ويأتي في مقدمتهم القاضي الفاضل الذي يعد علامة مميزة في تاريخ الأيوبيين وحضارتهم، ومن رواد الثقافة فيها ايضا الشيخ صدر الدين بن درباس، وابن سناء الملك والشيخ عز الدين بن عبدالسلام وغيرهم.

واعترافا بفضل هؤلاء العلماء فقد قربهم السلاطين الايوبيون إليهم واغدقوا عليهم الأموال والعطايا، وطلبوا منهم النصح والمشورة في كثير من أمور السياسة والادارة.

ويعتبر السلطان صلاح الدين أعظم مشيد لدور العلم في العالم الإسلامي بعد الوزير نظام الملك الذي كان له دور رئيسي في النهضة الثقافية في العصر السلجوقي ، ولاشك أن اهتمام السلطان صلاح الدين بالعلم يرجع إلى رغبته في مكافحة المذهب الشيعي الذي كان سائدا في القاهرة طوال العصر الفاطمي. وبالفعل كان الفضل لصلاح الدين في ازدهار العلوم الدينية والأدبية في القاهرة زمن الأيوبيين.

كما أن السلطان صلاح الدين كان يدرك أن العلم هو السبيل الوحيد في توحيد الرأي العام الإسلامي وإعداده للتصدى للصليبيين ، وقد اعترف نفسه بذلك حينما أرجع فضل الوحدة الإسلامية التي شهدتها البلاد في عهده إلى أحد اقطاب العلم والثقافة، وهو القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني.

وقد تركت النهضة الثقافية في القاهرة زمن الأيوبيين تراثا أدبيا وعلميا هائلا يتمثل في المؤلفات والمعارف سواء في مجال الدراسات الدينية أو العلوم الأدبية والتطبيقية. وتزخر الآن دور الكتب في مصر وبلدان العالم الإسلامي والخارجي بنفائس الكتب والمخطوطات التي ترجع للعصر الأيوبي.

وإذا كانت القاهرة قد عاشت أزهى عصورها الثقافية في العصر الأيوبي فإن ماشهدته من ازدهار عمراني وفني لايقل بأي حال من الأحوال عن التراث الثقافي لها.

وتؤكد الطرز المعمارية في القاهرة زمن الأيوبيين أن المعماريين كانوا على درجة رفيعة في البناء والهندسة المعمارية مما جعل العمائر بكافة أنواعها لاتتصف بالفخامة والروعة في البناء فحسب بل تحتوى على العديد من عناصر الذوق والجمال.

وإذا أمعنا النظر في فكر السلطان صلاح الدين حينما اختار موقع القلعة سنجده سابقا لعصره لأنها استمرت تستخدم مركز إداريا في مصر حتى عهد قريب من العصر الحديث.

وقد ازدهر عمران القاهرة من الجهة الجنوبية حيث اتصلت عمارتها بعمارة مدينة الفسطاط التي استعادت ازدهارها في العصر الأيوبي بعد أن أصيبت بدمار شامل في نهاية العصر الفاطمي على يد الوزير الفاطمي شاور الذى اضرم النار فيها أياما عديدة.

ومن روائع القاهرة في عصر الأيوبيين أنها جمعت بين الطرز المعمارية السلجوقية والفاطمية في انسجام كامل على الرغم من أن أبنية الأيوبيين كانت تتصف بالضخامة وتتطلب هندسة معمارية متطورة وزخارف عديدة.

وعلى الرغم من أن غالبية المدارس الأيوبية في القاهرة قد اندثرت فإن أثرها المعماري لايزال باقيا إلى وقتنا هذا ويتمثل في أروع العمائر الدينية المملوكية ، ومن ذلك مدرسة السلطان الظاهر بيبرس ومدرسة السلطان المنصور قلاوون ومدرسة السلطان الناصر حسن وجميعها توجد في مدينة القاهرة.

أما الفنون الأيوبية في القاهرة فعلى الرغم من أنها تأثرت بحالة الحرب التي خاض غمارها الجيش الأيوبي ضد الصليبيين في فترات عديدة، إلا انها استمرت في التطور والازدهار، وكما جمعت العمارة الأيوبية بين الطرز السلجوقية والفاطمية كانت الفنون بالمثل ، ولذلك ترك لنا فنانو القاهرة روائعا من التحف الفنية التي عبرت عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في الوقت الذي فاق بعضها نظائره في المدن الإسلامية الأخرى .

وبخصوص الفنون وبالتحديد فن صناعة وزخرفة الخزف ذي البريق المعدني والذي لايزال علماء الفنون يرون أنه لم يصنع في القاهرة زمن الأيوبيين، أقول باطمئنان كامل أن هذا النوع من الخزف كان يصنع في القاهرة في العصر الأيوبي، ودليلي على ذلك هو أن الخزف ذي البريق المعدني صنع في بلاد الشام زمن الأيوبيين فكيف لايصنع في القاهرة على الرغم من أنه كان يصنع بها في العصر بن الفاطمي والمملوكي، وربما أن علماء الفنون قد

عثروا بالفعل على قطع من الخزف ذي البريق المعدني من القاهر الايوبية غير أن تشابه وتقارب الأساليب الزخرفية بينها وبين خزف الفترة الفاطمية والمملوكية جعلهم لاينسبونها الى العصر الأيوبي.

وأخيرا فإذا كان البعض من باحثي التاريخ والحضارة الإسلامية يرون أن حضارة القاهرة زمن الأيوبيين تمثل مرحلة انتقال بين حضارة العصر الفاطمي والعصر المملوكي فإنني أتمنى أن أكون قد أثبت عكس ذلك في دراستي لمجتمع القاهرة في عصرها الأيوبي،وإذا كان البعض من باحثي التاريخ والحضارة الإسلامية يتساءلون عن السبب في قصر حكم الأيوبيين للقاهرة مقارنة بالفاطميين والمماليك فإن ذلك يرجع لاستعانة الأيوبيين بالمماليك وإستخدامهم كحرس وجنود فى الجيش الأيوبى إلى أن اصبحوا أمراء وقادة ، ثم وصلوا إلى السلطة فى نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجرى بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب وإقدامهم على قتل الملك المعظم توران شاة آخر السلاطين الأيوبيين فى مصر الإسلامية .